الفصل الثالث

في شهر كانون الثاني من عام 1997م، وحين كنت في سنّ التاسعة، تعرّضت عائلتنا لخسارة مفاجئة ومأساوية.

فبينما كان العمّ جون يعتني بحقول التبغ ظهيرة أحد الأيام برفقة والدي، انهار هناك. كان مريضاً منذ شهور عدّة، لكنّه رفض مراجعة الطبيب. أخذه والدي في ذلك اليوم إلى عيادة قريبة من المركز التجاري، واكتشف أنّه يعاني السل، وأنّ عليه الذهاب حالاً إلى مستشفى كاسونغو. كانت شاحنة العمّ جون متعطلة حينها. لذا أسرع والدي لاستعارة سيارة من أحد أصدقائه. وقبل أن يغادر، وضع فرشة شقيقه في ظل شجرة أكاسيا؛ كي يستريح. وبقيت زوجة العمّ إينيفا إلى جانب زوجها لمؤانسته، وسرعان ما انضم إليهما كثير من القرويين.

بعد مغادرة والدي بوقت قصير، سمعت ضجة صاخبة آتية من تحت الشجرة، تبعها شعور بالرعب. كانت إينيفا أول مَنْ صرخ. نظرت، فرأيتها تشق طريقها عبر الحشد، وتحاول التقاط أنفاسها. بدأ الآخرون الموجودون تحت الشجرة بالعويل والنواح، رافعين أيديهم نحو السماء. شعرت بعدها بيد على كتفي. نظرت إلى أعلى، فوجدت والدتي، وقد بدا على مُحَيّاها الانزعاج كأنّها تناولت شيئاً مُرّاً.

قالت: **لقد مات عمّك جون.**

عندئـذٍ، عاد والدي بالسيارة وعلم، بالخبر الحزين المتعلق بشقيقه، فانهار لدرجة أنّ الأمر تطلّب تدخّل بعض الرجال؛ لسنده.

كانـت تلك أول مرة أشاهد فيها والـديّ يعانيان بتلك الطريقة؛ منظر أخافني أكثر من أيّ أنـواع السحر. لقد مات عمّي جون، وكانـت جثته مسجاة تحت شجرة الأكاسيا. لم يسبق لـي حينها أن رأيـت ميتاً، لكنّني خفت أن ألقي نظرة؛ خشيـة ألّا يفارق المنظر مخيّلتي. وما هـي إلّا لحظـات حتى رأيت جيفري يظهر من بين الحشد. كان يبكي ويمشي حول نفسه كمَنْ ضيَّـع اتجاهـه. لم أدرِ ما كان ينبغي لي فعله أو قوله لجيفـري. ثمّ ورد في روعي أن آخذ ابن عمّـي، وأبتعـد به عن المكان فـي اتجاه الدامبو؛ لكي نلعب، وأتمكّن مـن التفكير. لم يرق لي هـذا الشعور الذي راودنـي فجأة؛ فقد جرت العـادة في ثقافتنا إظهار الحـزن واللوعة على وفـاة الأشخاص الأعزاء بالعويل والنـواح. لكنّني لم أشعـر بأنّني مستعد لفعـل لذلك، ولم أعرف السبب. وبعد لحظات، بدأت أشعر بالخجل، بعدما شاهدت ما يفعله الجميع، ولاسيّما والدي الذي احمرّت عيناه، وانتفخ وجهه من شدة البكاء. جلست وحيداً، وأرغمت نفسي على البـكاء، منعماً النظر على عمّي المتوفى، حتى أحسست بالدموع تنهمر حارّة على وجهي. ثمّ انضممت إلى ابن عمّي لتقديم التعازي قبل أن تجف.

وفـي وقت لاحق من ذلك اليوم، وصل شقيقا والدي موسايوالي وسقراط من كاسونغو، إضافة إلى بعض أفراد العائلة والأصدقاء الذين سمعوا النبأ. وصل أيضاً أعضاء من الكنيسة إلى بيت عمّي، وبقوا هناك طوال الليل واليوم الذي يليه. لقد حشروا أنفسهم داخل الغرفتين، ثمّ بدؤوا الغناء: «**هذا العالم ليس مستقري**»، في حين تدافع آخرون دخولاً وخروجاً لتقديم التعازي. كانت جثة عمّي جون مسجاة على فراش عشبي مغطى بقماش زاهٍ يُدعى تشيتينجي. وفـي صباح اليـوم اللاحق، وصل تابوت خشبي بسيط من كاسونغـو، ثمّ وُضعت الجثة داخله بلطف، لكنّني لم أمتلك الشجاعة الكافية لدخول البيت.

يُعَـدّ شهـر كانون الثاني جزءاً مـن موسم المطر، حيث الهواء رطـب وحارّ. وقد أصبح البيـت مزدحمـاً ودبقاً ذلك الصباح مـن كثرة توافد الناس، وأصبـح صوت عويلهم لا يطاق بالنسبـة إلى جيفـري. وفي لحظة ما، خرج، وقد بدا مشوّشاً أكثر من قبل، ومشى حيث كنت أجلس، قائلاً: وماذا الآن يا ابن العم؟ ما الذي سيحدث؟

قلت: **لا أعرف**. ما الذي يسعني قوله في موقف مثل هذا؟

وفي نهاية اليوم، دخل جيفري البيت، ليلقي نظرة على جثمان والده، ثمّ خرج مواصِلاً البكاء. وقد استمر بفعل ذلك حتى حان وقت طقوس الجنازة.

كان الزعيم ويمبي خارج البلدة. لذا، فقد حضر مراسله وحارسه الشخصي السيد نغواتا إلى البيت برفقة عدد من وجهاء القرية. جلسوا جميعاً تحت شجرة الأكاسيا ساعات عدّة يناقشون أموراً تتعلق بالجنازة، وما سيحدث لعائلة المتوفى. هناك عمل كثير جدّاً يتعيّن القيام به عند وفاة رجل مهم؛ وفي حال وجود خلاف على الميراث أو نقل الملكية، فإنّ الزعيم يتدخّل للفصل في ذلك.

أخيراً، اندفع الجميع خارجين من البيت، وتجمّعوا تحت الشجرة. وقف السيد نغواتا مخاطِباً الجمع بالنيابة عن الزعيم قائلاً:

نعرف أنّ هذا الرجل ترك وراءه ثروة؛ كنوز من ضمنها أبناؤه. نودّ أن ننصح أشقاءه برعاية هؤلاء الأطفال. احرصوا على أن ينهوا تعليمهم الإعدادي كما لو كان والدهم لا يزال حيّاً. أمّا بخصوص الممتلكات العينية، فلا نودّ أن يتبادر إلى سمعنا أيّ مشكلات بين أفراد العائلة بهذا الشأن. إذا كان هناك أحد يودّ مساعدة هذه العائلة، فليكن ذلك بمساعدة الأطفال والاعتناء بهم، بما في ذلك توفير الملابس لهم، إضافة إلى مصاريف الدراسة.

وقف شخص آخر لكي يتحدث. إنّه السيد جونيسي القادم من جنوب كاسونغو، الذي يرغب في التحدث نيابة عن عائلة والدة جيفري.

قال ممسِكاً قبعته: **إنّها أوقات حزينة لعائلتنا أيضاً. إنّنا قلقون جدّاً الآن؛ فالمرحوم ترك وراءه زوجة هي أختنا العزيزة إنيفا، إلى جانب أطفالها الأربعة. لقد تركت أختنا العائلة، وقدِمت إلى هذه القرية منذ وقت طويل. لذا، نرجو من عشيرة كامكوامبا العناية بالأطفال، وإتمام المهمة التي بدأها والدهم العزيز. هذا كلّ ما لدينا.**

بعدها، رفع والدي وأشقاؤه التابوت، ثمّ وضعوه داخل شاحنة صديقهم كاتشيلوي. وبعد أن قفزوا إلى داخل الشاحنة لتثبيت التابوت، سارت الشاحنة نزولاً في اتجاه المقبرة، في حين اتجه الناس إلى هناك مشياً على الأقدام.

تقع المقبرة عند نهاية الطريق، قرب قرية جدي، وهي مجرّد مكان صغير يُطِل عليه بستان من شجر اليوكاليبتوس، وينمو فيه عشب طويل حول بعض الشواهد الحجرية. كانت شقيقتا والدي، فاني وإيديث مدفونتين هناك أيضاً.

عندما وصل الجميع، كان بعض الرجال الذين ينتعلون جزمات طويلة بالانتظار، وهم يُسمّون عادة بالإدزوكولو؛ إنّهم حفّارو القبور الذين يستعان بهم؛ للقيام بأعمال الحفر والدفن. يُذكَر أنّ القبور في مالاوي ليست مجرّد حفر مفتوحة بعمق ستة أقدام كما هو الحال في العالم الغربي، إنّما يحتوي كلّ قبر على حجيرة مخفية في قعره – تكون عادة مكاناً ضيّقاً يُحفر في جنب الحفرة – يوضَع داخلها التابوت. يشبه هذا الأمر حصول المتوفى على غرفة مخصوصة به بعد الموت. وتهدف هذه العملية إلى حماية المتوفى من التراب المتساقط عليه، أو بالأحرى، تجنيب العائلة رؤية التراب، وهو يتساقط على التابوت. كان القبر الذي حفره **الإدزوكولو** للعمّ جون يحتوي على حجيرة في وسط الحفرة، كأنّها حفرة داخل حفرة.

أنزل **الإدزوكولو** التابوت بالحبال إلى الحجيرة بصعوبة. كان حجمها مناسباً للتابوت تماماً. ثمّ قفز أحد الحفارين بعدها، وغطّى الحجيرة بألواح خشبية غليظة وفُرِش من قصب. بدا القبر فارغاً بعد هذه العملية.

لقد شاهدت ذلك كلّه يحدث أمام ناظريّ؛ كأنّني أرى كابوساً، وقد نالت منّي الحمّى؛ رأسي يؤلمني، وطنين غليظ لا يزايل دماغي؛ كأنّ الشمس التي تضغط عليّ من أعلى أسمعتني صوتها. عندما فرغ **الإدزوكولو** من ملء القبر بالتراب وتغطيته بالعشب، انضممت إلى جموع المعزّين بالصعود إلى أعلى التل. كانت تلك أكثر اللحظات وحدة في حياتي.

أصبحت الأوضاع أكثر صعوبة عقب وفاة العمّ جون؛ فعدا الحزن الذي لفّنا جميعنا، كان على والدي إدارة الأعمال وحده. كنّا في بداية موسم الزراعة، فاعتنى والدي بالمحاصيل حتى موعد الحصاد. ودفع أجر العمّال كافة، وانتهى من تسوية كامل الحسابات. بعدئذٍ،

عمـل بنصيحة الزعمـاء، فسلَّم الأعمال جميعهـا لابن جون البكر جيريمايـا، الذي كان في العشرين من العمر.

جـرت العـادة أن يـرث الابن البكر كلّ شيء عـن والده، لكنّ الأمـور لا تجري على هذا المنوال دائماً؛ فيحدث أن يبرز أحد أشقائه للاستحواذ على المال كلّه، تاركاً عائلة المتوفى تحـت رحمتـه. ويا للأسف! فإنّ ذلك يحدث دائماً؛ ما جعل أغلـب التظلّمات التي ينظر فيها زعماء القرى، هي من هذا القبيل.

عاش جيريمايا برفقة جيفري ووالدتهما، وكان يساعد عادة في أعمال الزراعة. ولكن، كنّـا نعرف أنّه لا يرغب في العمل الشاق. ولم يُبـدِ اهتماماً بالدراسة على الرغم من ذكائه، وعادة ما كان يقضي وقته، وهو يشرب في الحانات. كان والدي يشعر بقلق بالغ حيال تسليمه مصالح العائلة، لكنّه لم يشأ أن يدخل في مشاحنات مع الزعيم أو الأقارب.

قال والدي حينها: **لا أريد أن ينعتني أحد بالسارق. سأفعل الصواب حتى لو كان ذلك يعني أنّ الأمور ستجري على نحو سيئ.**

حقّاً، فوجئ جيريمايا لدى معرفته أنّه سيتسلّم ثروة العائلة؛ فقد كان يعتقد أنّ أعمامه لا يثقون به.

قال لوالدي: **إنّها نعمة رائعة. شكراً جزيلاً لك.**

ولكـن، مـا إن سيطـر جيريمايا على الوضـع حتى أنفق دخـل الموسم كلّـه في حانات ليلونغـوي وكاسونغـو. وعندما حان وقت شراء البذور والسماد فـي شهر تشرين الثاني؛ بغية زراعـة الـذرة والتبـغ مرّة أُخـرى، وتوظيف عدد آخر مـن العمّال، لم يكن المـال الذي بقي بحوزتـه كافيـاً لذلك؛ ما أدى إلى تراجـع الإنتاج، وقلّة محصول الموسـم اللاحق. وبعد بيع التبغ في المزاد، أخذ جيريمايا المال، وتوارى عن الأنظار، ثمّ ظهر بعد أن أنفق معظمه.

كان العمّ جون يملك أيضاً طاحونتي ذرة في قريتين مجاورتين، وكان يأتيه من ريعهما مـال وفير. أيضاً كان يملك ثمانية رؤوس من الماشية. وضع جيريمايا يده على الطاحونتين

والماشيـة أيضـاً، إلّا أنّ أكبـر أعمامـي، موسيوالي، أخذ منه – في العـام اللاحق – إحدى الطاحونتين ونصف الأبقار عنوة، ليفقد جيريمايا طاحونته وأبقاره في العامين اللاحقين.

أمّـا والـدي فقد رأى أنّ مـا صنعه شقيقه قد أصبـح هباءً منثوراً. يمكـن للشخص أن يخسـر كلّ شـيء بسرعة في قطاع الزراعة. وكما جرت العادة، فلا يحقّ لوالدي استرجاع ما كان قد منحه سابقاً؛ فما إن ترفع يدك عن إدارة المصالح، حتى تخسر إلى الأبد. وقد تُركت عائلتنا لتعيش على عاتقها بعد انهيار كلّ شيء.

وبوجـه عام، أصبحـت الزراعة عملاً صعباً فـي مالاوي بسبب سياسـات رئيس البلاد الجديـد. ففـي عـام 1994م؛ أي قبل ثلاثة أعوام مـن وفاة العمّ جون، تنحّـى الرئيس باندا عـن السلطة أخيراً بعد خسـارة أول انتخابات سمح بإقامتها. كان الناس قد ملّوا الوضع بعد ثلاثين عاماً من حكمه. ثم إن المعارضة ضدّه استعرت؛ إذ تجمّعت حشود غفيرة في المدن للتظاهـر ضد طغيانه وسياساته المتعنّتة، وقد أفضى ذلـك إلى وقوع أعمال شغب. يُذكَر أنّ عصابات باندا قامت قبل الانتخابات بمحاولة تخويف الناس؛ لكي يصوّتوا له لولاية جديدة. ففـي أحد الأيـام، ظهر ما يزيد على ثلاث مئـة غولي وامكولو في الشـارع المحاذي للمركز التجاري حاملين توابيت فارغة، ووعدوا أن يملؤوها بمَنْ لا يدعم الرئيس الأبدي.

لكـنّ المعارضـة فازت في نهايـة المطاف، وخلافاً لمـا يفعله الخاسـرون في إفريقية عـادة، وافق بانـدا على ترك منصبه بهدوء مـن دون شنّ أيّ حرب، حتى إنّـه أعلن هزيمته قبـل الانتهاء من عـدّ كامل الأصوات. كان يعلـم أنّ أوانه قد حان. وبسبـب ولادته وترعرعه فـي كاسونجـو، فقد عاد إلى بيته عند سفح جبل نغورو يـا ناوامبي – أو ما كان يُعرف سابقاً بصخرة الذباب الصالح لـلأكل، حيث هزم محاربو تشيوا العظماء خاصتنا جيش نجوني– وعاش بقية حياته هناك. وقد تولّى الرئاسة من بعده وزير ضخم سمين سابق يُدعى باكيلي مولوزي، جالباً معه مشكلات من نوع جديد.

صحيح أنّ باندا كان متسلطاً قاسياً، لكنّه كان يعتني كثيراً بالمزارعين والأراضي. وتُعَدّ منطقتنـا أكثر المناطق خصوبة في مـالاوي قاطبة، وكانت تُسمّى عادة (**سلّـة غذاء**) البلد، وكان بانـدا يعرف مـا يتطلّبه العمل في هـذه الأرض. فكان يحرص على توفيـر السماد لكلّ

مُزارِع. وكانت البذور زهيدة الثمن، وذلك مكّن كل مُزارِع – إذا رغب – من زراعة التبغ في مـالاوي، وبيعه بعدهـا. كان ذلك يعني أنّ أيّاً من العوائل في مـالاوي لن تعاني الجوع ما دام المطر ينهمر غزيراً.

أمّا مولوزي رجل الأعمال الثري أصلاً قبل ولوجه معترك السياسة، فقد رأى أنّ الحكومة لا تملـك مصلحـة في التعامـل بالسماد والحبوب. لقـد أراد أن يكون مختلفاً عـن باندا بأيّ طريقـة، وكان ذلك بإيقاف الدعم، وترك المزارعين يتدبـرون أمورهم بأنفسهم. وسمحت السـوق المفتوحـة للشركات الغنية غمر المـزادات بكميات كبيرة من التبـغ، وذلك أدى إلى تدنـي الأسعار، وسحق صغار المزارعين. وسرعان ما أصبحت قيمة تبغ **البرلي** الذي ننتجه متدنيـة جدّاً لدرجة جعلت كثيراً مـن المزارعين يعزفون عن زراعته. ومع ذلك، فقد تمكّنت عائلتـي مـن زراعة عدد محدود من قطع الأرض الصغيـرة، إضافة إلى حقول الذرة التي لم تتغيّر مساحاتها.

فـي السنـة اللاحقة لوفاة العمّ جون، فَقَدَ عمّي سقراط (الـذي كان يعمل عامل لِحام) وظيفتـه لدى سلطة كاسونغو لصناعة التبغ المعالج بالأفران بعـد أن أغلقت العزبة أبوابها. وقـد اضطر هو وعائلته إلى تـرك مأواهم هناك والعودة إلى قريتنـا، فسكنوا عريشة كبيرة قرب بيتنا.

كان للعـمّ سقـراط سبع بنات، وذلك أسعد شقيقاتي فقـط؛ فقدومهم لم يكن يعني لي كثيراً. ولكن، وفي أثناء نقل متاعهم من الشاحنة ذات الأطنان العشرة، رأيت شيئاً يقفز من على ظهرها، ثمّ شاهدت كلباً ضخماً يجثم عند قدميّ.

ابتعـد، صـرخ سقراط راكلاً الهواء فـوق رأس الكلب الذي عوى مرّة، ثـمّ ولّى الأدبار. وبعد ابتعاده مسافة آمنة، جلس محدِّقاً إليَّ.

قـال سقراط: **هذا كلبنا كهامبا. قلت لنفسي: لِمَ لا أجلبه؛ ليحرس الدجاج والماعز هنـا. لقـد كان يجيد ذلك في العزبة. ربّما يذكّره ذلـك بالوطن. سنفتقد ذلك المكان ولا شكّ.**

كان كهامبا من أكثر الكلاب التي رأيتها في حياتي غرابة؛ إذ كان لونه أبيض مع بقع سود كبيرة على جسمه ووجهه، كأنّ شخصاً رشقه بدلو من الطلاء. كانت عيناه بنيتين، كان أنفه ملطخاً ببقع وردية فاقعة. لقد بدا غريباً، كشيء قادم من بلاد بعيدة. ثم إنه كان كبيراً وأطول من كلاب قريتنا، لكنّه كان هزيلاً كحالهم. يُذكَر أنّ الكلاب في مالاوي تستخدم لغرض الحراسة فقط. لذا، لم تكن تحظى بغذاء مماثل لما تناله الكلاب في العالم الغربي. تأكل الكلاب في مالاوي الفئران ومخلّفات الموائد إن وُجدت. لم أرَ كلباً سميناً طوال حياتي.

جلس كهامبا يطالعني من هناك، وذيله الأبيض الطويل يثير بحركته الغبار من خلفه. وتدلّى لسانه الطويل من على جانب فمه مسيلاً اللعاب. وما إن ولج سقراط داخلاً حتى جاء كهامبا، وامتطى ساقي.

ابتعد، صرخت عليه، مشوّحاً بيديّ، فهرول في اتجاه البيت.

اذهب، وطارد الدجاج أيّها الحيوان الغبي.

تدلّى لسانه مرّة أخرى، وسال لعابه على التراب.

عندما استيقظت صباح اليوم اللاحق، تعثّرت بشيء في أثناء توجّهي إلى الحمّام. كان كهامبا مستلقياً عند عتبة باب غرفتي، ينتظر رافعاً أذنيه.

قلت: **أخبرتك بأن تتركني وشأني**، ثمّ أدركت ما كنت أقوم به. لم أكن لأدع أحداً يراني أتحدث إلى الحيوانات، وإلّا ظنني الجميع مجنوناً.

وفي أثناء عودتي من الحمّام، صادفت سقراط يخرج من بيتنا برفقة والدي. ابتسم، ثمّ أشار إلى الكلب الذي أصبح يلازمني كظلّي.

قال: **أرى أنّك وجدت صديقاً. لقد مَنَّ الرب عليَّ بسبعة أطفال كلّهم من البنات. أعتقد أنّ كهامبا سعيد؛ لأنّه وجد صديقاً له أخيراً.**

قلت: **أنا لا أصادق كلاباً.**

ضحك سقراط، قائلاً: **أقنعه هو بذلك.**

أقلعت بعد مدّة عن محاولات التخلّص من كهامبا؛ فلم تكن تلك ذات جدوى. ولأكون صادقاً؛ فلم يكن الأمر بذلك السوء، فأنا لم أمتلك كلباً من قبل، وكان من الجميل أن أحظى برفقة، وبخاصة من تلك الفئة التي لا تتحدث أو تصدر الأوامر. كان كهامبا ينام خارج باب غرفتي كلّ ليلة، وحين كانت تمطر، كان ينسل إلى مطبخ والدتي، ويكوّم نفسه في الزاوية. وتولّى عمله في حراسة الدجاج والماعز دون طلب من أحد، وحماها من هجمات الضباع النادرة، وقطعان الكلاب المتشرّدة التي تجوب المنطقة؛ بحثاً عن الطعام. وكان يطارد الماعز في المكان، ما يجعلها تثغو، وتزعق، وتثير الغبار. وكان كلّما فعل ذلك، خرجت والدتي من المطبخ، وقذفته بحذائها.

كانت تصرخ: **أبعدوا هذا الكلب عن هنا.**

كان الأمر برمته ضرباً من اللعب بالنسبة إلى كهامبا. وكثيراً ما كان يعذّب الدجاج والدجاج الحبشي أيضاً، وكان يبدو مستمتعاً، حين ترفرف الدجاجات الكبيرة بأجنحتها نحوه، مهسهسة وحافرة الأرض بمخالبها.

أحب كهامبا الصيد أكثر من أيّ شيء آخر. آنذاك، حلّ موسم الذهاب إلى الصيد في الحقول والدامبو محلّ كثير من الألعاب التي كنت أمارسها في البيت. فبدأت أذهب برفقة أبناء عمّي ممّن هم أكبر سنّاً، مثل جيفري وتشاريتي الذي كان يسكن على مقربة منّا هو الآخر.

كنّا نصطاد الطيور عادة؛ إذ نختبئ بين الأعشاب الطويلة قرب الدامبو، التي تكون طويلة جدّاً في موسم الجفاف، لدرجة أنّه يمكنها ابتلاع رجل كامل. كنّا ننتظر حتى الظهيرة، عندما يحين موعد قدوم الطيور لشرب الماء، ثمّ نضع بعض العصي المدهونة بطُعم يُدعى **أوليمبو**، وهو عصارة لزجة تعمل عمل الغراء. وحين يدوس الطير على إحدى العصي، يعلق ويبدأ بخفق جناحيه، مُصدِراً ضجة كبيرة. وقبل أن يتمكّن من تحرير نفسه، كنّا نقفز من بين الأعشاب حاملين سكاكيننا، صارخين: **تونغا! لقد اصطدته!**

تامانغا! أحضره بسرعة؛ حتى لا يخيف البقية.

سأقطع عنقه!

لا، أريد نزع رأسه!

كنّا نختلف على مَنْ سيقتل الفريسة، ونتناوب عادة على نزع رؤوس الطيور، أو نمسكها بين أصابعنا، وننزعها مثل حبّة الطماطم. وبعد أن نزيل الأحشاء والريش، كنّا نخزّنها داخل أكياس سكر تتدلّى من رقابنا. وما إن نعود إلى البيت حتى نشعل ناراً، ثمّ نشوي الطيور على الجمر المتوهج. ولحسن الطالع، لم يكن الأهل يجبروننني أنا وجيفري على مشاطرة الصيد مع الآخرين. كنّا نعود في بعض ليالي الصيف بثمانية طيور، ونتناول وجبة دسمة.

لم تملك عائلتي يوماً المال الوفير، وكان صيد الطيور هو الوسيلة الوحيدة لتناول اللحم عادة؛ وذلك يُعَدّ نوعاً من الرفاهية. وتحفل لغة تشيتشيوا بكثير من الكلمات والمصطلحات بهذا الشأن، حتى إنّ فيها كلمة «**نكهولي**»، التي تعني «**نهماً شديداً للحم**».

لم يكن سهلاً إسكات ذلك النوع من الجوع، في حين كانت تلك المهام غادرة في بعض الأحيان؛ فعلى سبيل المثال، فإنّ أفضل عصارة أوليمبو لصيد الطيور تستخرج من أشجار نكهازي التي تنمو بأفرع غليظة جدّاً مغطّاة بالشّوك. وكان على المرء حشر نفسه داخل الشجرة، وقطع الجذع بالسكينة، والحذر من دخول العصارة في عينيه؛ لأنّ ذلك يعني الإصابة بالعمى.

في ظهيرة أحد الأيام، ذهبت أنا وجيفري وتشاريتي لجمع الأوليمبو، فوقع نظرنا على شجرة نكهازي مثالية للعملية.

قال تشاريتي: **أنا سأذهب**. كان فتى يميل إلى إحداث الضجة؛ كونه يودّ أن يكون القائد. لذا، فقد تركناه يذهب.

صعد تشاريتي شجرة **نكهازي** مستلّاً سكينته، ومتوخّياً الحذر من الأشواك الحادّة المحيطة. تطاول وشقّ الجذع، ثمّ أمسك كيس السكر لجمع العصارة المنسكبة. ولكن، في أثناء ذلك، هبّت ريح قوية هزّت الشجرة كلها، ما أدى إلى تطاير الأوليمبو إلى عينيه. اندفع تشاريتي من الدغل صارخاً: **لقد عميت، لقد عميت! ساعدوني! إنّه مؤلم!**

سألت جيفري: **ماذا نفعل؟**

كان هناك رجل عمل مرّة لدى العمّ جون يُدعى ماكسويل. وقد علّمنا أشياء عن شجرة نكهازي، وعمّا ينبغي فعله إذا دخلت العصارة عين أحد ما.

التفت إليَّ جيفري، قائلاً: **أتتذكّر ما أخبرنا به ماكسويل؟**

قلت: **نعم، ماذا؟**

قال: **العلاج الوحيد هو حليب الأم.**

قلت: **حسناً، من أين نحضره؟**

قال: **من بيتكم.**

كان محقّـاً؛ فوالدتي كانت قد أنجبت حديثاً شقيقتي مايلس. ربّما تستطيع مساعدتنا. اقتدنـا تشاريتـي من قميصه فـي اتجاه بيتي. وعندمـا وصلنا هناك، أخبـر جيفري والدتي بالأمر، ووافقت على مساعدتنا. طلبت من تشاريتي الجلوس على ركبتيه وفتح عينيه.

أخرجـت ثديهـا، واقتربت من وجهـه، ثمّ قالت: **اثبـت**، ثمّ عصرت بعض الحليب في عينيه.

كان موقفاً مضحكاً. ثمّ صرخ جيفري: **هيّا يا رجل، لا تبتلع أيّاً منه.**

أضفت ممسكاً أضلاعي من شدّة الضحك: **هذا جزاؤك لإرضاء نكهولي.**

لـم أسـأل تشاريتي عن شعوره حيال ما حدث، لكنّني أعتقد أنّ الأمر لم يكن ذا أهمية. وبعـد دقائـق معدودات، تمكّن من فتح عينيه ورؤية ما حولـه. كان هناك إجماع بيننا على أنّ ماكسويـل لا بُـدّ أن يكون ساحراً ليعرف سـرّاً مثل هذا. وفي هذه الأثنـاء، استدارت والدتي نحـو تشاريتـي، قائلـة: **سأحصـل على الطيـور التـي تصطادهـا كلها المـرّة القادمـة لقاء خدماتي.**

وافـق تشاريتي، وأحضر في اليوم اللاحق كيس سكر يحـوي أربعة طيور، ثمّ وضعه في المطبخ.

لقد علّمني الصيد مع ابني عمّي طرائق التعامل مع الأرض: كيفية إيجاد المكان المناسب بين العشب الطويل عند برك الدامبو المتلألئ، وكيفية خداع الطيور بشَرك قوي خادع، والتحلّي بالصبر والهدوء في أثناء انتظار الفريسة. يعرف كلّ صياد ماهر أنّ الصبر عامل رئيس في الصيد، وكان كهامبا يعي ذلك جيداً، كأنّه مارس الصيد طوال حياته.

بدأت طلعاتنا مع قدوم موسم المطر، حينما كانت السماء تمطر بغزارة في الصباح، ليتحوّل الجو وقت الظهيرة، فيصبح حارّاً والهواء شاحباً. لا تجذب الدامبو كثيراً من الطيور، عندما تكون الأرض رطبة ومليئة بالحفر الطينية. وحينئذٍ، نعتمد – نحن معشر الصيادين – على التشيكهوابو؛ وهو سوط كبير فتّاك، يشبه شَركاً على شكل مقلاع. ولكن، من دون ذخيرة.

وبعد أن توقّف المطر ذات صباح، انطلقت أنا وكهامبا لنصب الشراك. حملت على طرف معولي كيساً مصنوعاً من شالٍ طويل يُسمّى **مبانغو**، قماشه ذو ألوان زاهية، وتستخدم النسوة هذا الكيس لرفع كلّ شيء، بدءاً بشعورهنّ وانتهاءً بأطفالهنّ على ظهورهنّ. كان الكيس يحتوي على إطار درّاجة هوائية داخلي طويل، ومبرق درّاجة هوائية مكسور، وسلك معدني قصصته من حبل غسيل والدتي، وحفنة من تبن الذرة الذي يُسمّى **غاغا**، وأربع قطع طوب ثقيلة. وكما هو الحال، فقد حملت سكينتين للصيد كنت قد صنعتهما بنفسي.

كانت الأولى سكينة صاعقة على غرار تلك التي يستخدمها رامبو، وكنت قد صنعتها من ألواح حديد غليظة. بدايةً، خطّطت شكلاً مخيفاً على الحديد بقلم رصاص، ثمّ استخدمت مسماراً ومفتاح ربطٍ كبيراً؛ لعمل ثقوب على طول الخطوط، بحيث يتزحزح من مكانه عند ضربه بصورة قوية، ثمّ وضعت القطعة الحديدية على صخرة مستوية لتنعيم الحافات وجعلها حادّة. أمّا المقبض، فكنت ألفّ السكينة من أسفل بأكياس الجامبو للحصول على قبضة كافية ومستوية، ثمّ أذيبها في النار.

كانت السكينة الأخرى تشبه أداة للطعن، مصنوعة من مسمار ضخم جعلته مسطّحاً بالدقّ عليه عن طريق مفتاح الربط وتحديد طرفه، ثمّ عملت مقبضها على غرار مقبض السكينة الأولى نفسها. بعد ذلك، وضعت كلتا السكينتين برباط خصر معلّق ببنطالي.

وحين فرغت من ذلك، حزمت معداتي، ثمّ انطلقت يرافقني كهامبا نزولاً في الطريق المؤدي إلى المقبرة، الواقع خلف بيت جيفري، حيث أشجار اليوكاليبتوس عالية، وتمنح ظلّاً كافياً. انتصبت تلال مرتفعات دوا – التي تفصلنا عن البحيرة – أمامي على نحو جميل،

منظر لمرتفعات دوا، كما تظهر من بيتي. يقع الجبل خلف صفوف الذرة وغابة اليوكاليبتوس مباشرة. كنت أذهب أنا وكهامبا للصيد هناك.

يلفّها ركام رعدي رمادي يقطر. كانت هناك عاصفة جديدة توشك أن تهبّ. لذا، كان علينا العمل بسرعة.

وجدت مكاناً مناسباً عند الطريق الرئيس، بجانب شجرة يوكاليبتوس طويلة من شأنها توفير ظلّ مديد حال ميلان الشمس عبر السديم. استخدمت معولي؛ لإزالة العشب والأوراق حتى تكشف الطين الأحمر (سطح يبلغ قطره نحو أربع أقدام)، ثمّ نشرت بسكينتي غصنين غليظين من شجرة اليوكاليبتوس، وأزلت لحاءهما، ثمّ بريتهما حتى استدق طرفهما. بعد

ذلك، وضعت العمودين في التربة الرطبة، بحيث تفصل بينهما مسافة قدمين، ثمّ سحبتهما لاختبار مدى ثباتهما. لقد كانا ثابتين بصورة جيدة.

أمّا إطار الدرّاجة الداخلي فقد قطعته إلى شريطين رفيعين، وثبّت عليهما السلك المعدني، ثمّ ربطت الشريطين المطاطيين إلى العمودين. وحال فراغي منها، أصبحت تشبه مقلاعاً ذا مركز حديدي غليظ. لقد كانت تلك أداة فاعلة للقتل.

بعد ذلك، جمعت بعض اللحاء من أشجار قريبة، ثمّ ربطت بعضه ببعض لأصنع حبلاً طوله خمس عشرة قدماً تقريباً، ثمّ قطعت جزءاً منه يبلغ طوله نحو ثماني أقدام، وثبّته بالأداة المعدنية. بعدئذٍ، ربطت طرفها الآخر بعصا جاعلاً العقدة كبيرة ومدوَّرة، ثمّ أمسكت العصا كالمقبض، وشددت الأشرطة المطاطية نحو الخلف إلى أقصى حدّ. بعد ذلك، حشرت المقبض بين عمودين – عصا أخرى ومبرق الدرّاجة – وثبّته باستخدام العقدة الثخينة المدوّرة.

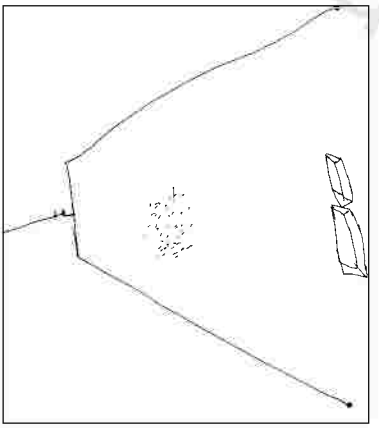

كانت تستعمل مصيدة الشخوابو لقتل الطيور في فصل الشتاء حيث كانت تكسر بين قطعتي الطوب، فتموت، ثم أقوم بأكلها.

امتد الحبل الطويل إلى ما بين الأشجار ليستخدم زناداً. وما إن أُعِدّ حتى وضعت قطع الطوب الأربع على بُعْد إنشات عدّة أمام الشَّرك، ثمّ رششت تبن الذرة في المنتصف. كانت تلك منطقة القتل. فحين تحط الطيور لأكل التبن، أسحب الحبل مُطلِقاً المقلاع الذي يضرب الطيور بحائط الطوب.

قلت: **فلنبدأ الصيد**، ثمّ تبعني كهامبا بين الأشجار.

اختبأنا خلف شجرة ثومبوزي صغيرة على نحوٍ أتاح لي رؤية كلّ شيء من دون أن يلحظني أحد. وحالما قبعت هناك، جلس كهامبا إلى جانبي، وأخذ ينظر إلى الأمام باهتمام من دون أن يتحرّك أو ينبح. وبعد نحو نصف ساعة، حضر سرب صغير مكوَّن من أربعة طيور، ورأى الطُّعم. حطَّت الطيور على الأرض، وبدأت تنقر التراب. حينئذٍ، بدأ قلبي يخفق، وانتصبت أذنا كهامبا، وأخذ فمه يرتعش. كنت على

وشك إفلات الحبل عندما لمحت طائراً خامساً يوشك أن يحط عند أقرانه. كان ضخماً، ذا صدر رمادي كبير وريش أصفر.

قلت لنفسي: **هيّا، إلى اليمين قليلاً، أحسنت، هيا.**

وبعد ثوانٍ قليلة ثقيلة، انضم الطائر السمين إلى المجموعة وبدأ بالأكل. وما إن أصبح الجميع في منطقة القتل حتى أَفلتُّ الحبل.

وو – بوب. ثمّ اختفت الطيور في غيمة من الريش والتبن.

صرخت: «**تونغا!**» واندفعت أنا وكهامبا من مخبئنا.

ارتمت أربعة طيور عند الطوب، في حين تمكّن الخامس من الفرار. كان الطير الكبير لا يزال يرفرف في الطين، فتناولته قبل أن يهرب. كان جسده دافئاً وناعماً على يديّ. كان بمقدوري الإحساس بقلبه الصغير يخفق على راحة يدي. أمسكت رأسه بين إصبعيّ، ثمّ لويت عنقه. بعد ذلك، تناولت الآخرين، ثمّ نفضت الطين عنهم. وقد اعتدت أن أُحضر كيس سكر لأضع الطيور فيه، لكنّني نسيت هذه المرّة؛ فدسست الطيور العاجزة في جيوبي.

وحالما أعدت نصب الشَّرك، انتظرت نصف ساعة أخرى، لكنّني استسلمت في النهاية.

قلت: **حان الآن وقت الأكل**، ثمّ انطلقت أنا وكهامبا صوب مبهالا.

تعني كلمة مبهالا (**بيت العزاب**)، وهو مكان سكنه ابن عمي تشاريتي. كان أشبه بالمنتدى، وهو يقع ضمن ملكيتنا مقابل بيت جيفري. وقد سكنه مدّة من الزمن جيمس؛ العامل الذي تشاجر مع بهيري. ولكن، بعد تسريحه، بقي المكان خالياً. احتل تشاريتي المكان برفقة صديقه ميزيك، وهو شاب ضخم سمين، ترك المدرسة ليعمل في التجارة. وعلى الرغم من أنّ كلّاً منهما كان يسكن مع عائلته (كان بيت تشاريتي يقع قرب بيت غيلبرت في بستان اليوكاليبتوس)، إلّا أنّهما كانا ينامان ليلاً في المنتدى. فقد أعدّ أحدهما في الزاوية سريراً من أعمدة شجر اليوكاليبتوس وأكياس الذرة المحشوة بالعشب. وكانت الملابس المتسخة مبعثرة في الأنحاء كلّها، إلى جانب قشور المانجو، وقشور الجوز، ونفايات أخرى غريبة. و عُلّقت على أحد الجدران صورة كبيرة للاعبي فريق نادي إم تي إل وندورورز لكرة

القـدم – يُعرَفون أيضاً باسم البـدو –، وهو فريقي المفضّل في الدوري المالاوي، وربّما في العالَم أجمـع. وقد زيَّنت الجدارَ المقابل صورةٌ أخرى، يظهر فيها غريمهم اللدود فريق بيج بوليتس الذي لا يمكن أن أصف مدى كراهيتي له.

كان هنالـك موقـد تدفئة فـي الزاوية، وهو فـي حقيقة الأمر مجرّد إنـاء ضخم ضحل مثقوبـة جوانبه من أجل التهوية، ويحوي لبّ ذرة متفحمـة وخشباً. كانت هنالك أيضاً نافذة صغيرة لتصريف الدخان، لكنّها لم تكن ذات نفع كبير. و كانت مدخل الضوء الوحيد للغرفة، الـذي كان مجرّد شعـاع هزيل من ضوء الشمس تلوّثه ذرّات الغبـار المتطايرة. وعلى الرغم مـن أنّ هواء الغرفة كان نتنـاً مثل قدمين قذرتين؛ فإنها كانت تمثّـل أفضل مكان في العالَم في نظري.

كنـت أُمنع من دخول المنتدى؛ لأنّني صغير ومزعـج، إلّا في حال قدَّمت شيئاً يشفع لي بالدخـول. وقـد سُمِح لي بالدخول بضـع مرّات بعد أن ساعدت في سرقـة ثمر المانجو. كان تشاريتي يجعلني أضع كيس مبانغو حول عنقي وأتسلّل إلى مجمع الجيران، ثمّ أتسلّق الشجرة بهدوء، مستخدماً سكينتي وأسناني في قطع ثمار المانجو عن الشجرة، ثمّ أضعها في الكيس، وأُقدِّمها إلى المبهالا؛ ليسمحوا لي بالدخول. كان الأمر شبيهاً بدفع رسوم الدخول.

كانـت المحادثـات في الداخل مثيرة ورابكة – في أغلـب الأحيان– لعقل طفل في سنّ الحادية عشرة. وكان معظم الحديث يدور عن الفتيات، وكنت محظوظاً إذا غفلوا عن وجودي معهـم. ففي إحدى المرّات، توقّف ميزيك فـي أثناء حديثه عن إحدى الفتيات التي شاهدها في البلدة، ثمّ قال لتشاريتي: **يتعيّن علينا الحذر؛ فهنالك طفل يجلس معنا. هذا الفتى لا يمكنه تحمّل هذا النوع من القصص.**

بدأت أتوسّل: **أنا لست طفلاً. بالله عليكم يا جماعة، أكملوا الحديث. أنا رجل ناضج. أعرف بعض الأمور عن الفتيات.**

قال أحدهم: **حقّاً، وماذا تعرف؟**

قلت: **أعرف... أعرف ما تعرفونه أنتم.**

بينمـا كنت عائداً من الصيـد برفقة كهامبا، كنت على ثقة بـأنّ غنيمتي كافية لمنحي الإذن بالدخول. اقتربت من المكان، وسمعت صوت تشاريتي وميزيك من الداخل، ثمّ قرعت الباب، ففتح لي تشاريتي، قائلاً: **ماذا تريد؟**.

قلـت: **يـا شباب، لقد حصلت على أربعة طيور للتو! إنّهـا هنا في جيوبي. هل يمكنني الدخول؟**

ظهر ميزيك قرب الباب، قائلاً: **ماذا لديك هنا؟**

قلت: **أربعة طيور.**

قال متبسماً: **هذا هو نوع الرجال الذين نحتاج إليهم في المبهالا. لقد أحسنت صنعاً.**

قال تشاريتي: **سنشعل ناراً.**

دخلـت فرحـاً، ثمّ تبعني كهامبا، وحينئـذٍ، صرخ ميزيك: **أخرج هـذا الكلب الغبي من هنـا. سيظـن أنّـه يسكن هنا أو مـا شابه. مكان الـكلاب ليس في الداخـل، ألا تعرف ذلك؟ أراهن أنّك تتحدث إليه حتى...**

صرخـت: **كهامبـا، اخرج**، ورفست ساقي إلى الخلف، ثمّ ركضـ خارجاً، وهو ينظر إليَّ بحيرة.

همست له قائلاً: **انتظر.**

بـدأت أُنظِّف الطيور بنزع الريش عنها، وهَزِّ أصابعي لينزل في دلو، ثمّ نزعت الرؤوس وأخرجـت الأحشـاء. وحيـن فتحت البـاب، كان كهامبـا في الانتظـار. كانت تلـك مكافأته لمساعدتـي علـى الصيـد، وكانت بالنسبة إليـه أثمن من الحيـاة نفسها. ثـمّ أخذت أقذف الرؤوسـ فـي الهواء واحـداً تلو الآخر، فقفـز كهامبا وتلقّفهـا. لقد تمكّن مـن أكلها بقضمة واحدة. وابتلع الأحشاء بلقمة سريعة.

أمّـا فـي الداخل، فـكان تشاريتي وميزيك قد وضعـا لحم الطيور علـى الفحم، وكانت رائحة اللحم الساخن شهية جدّاً.

قلت: **يا شباب، لقد سال لعابي.**

قالا: **اهدأ.**

وحيـن انتهيا من شواء طيوري، سمحـوا لي بتناول أحدها. ولكن، ما إن أصبحت عديم النفع بالنسبة إليهما، حتى حدث ما كان محتوماً؛ إذ

قال ميزيك: **اسمع، والدتك تناديك يا فتى.**

قلت: **ماذا؟ أنا لا أسمع شيئاً.**

قال تشاريتي: **إنّه محق. إنّها حتماً والدتك.**

كانت أوامر المغادرة قد صدرت،. ودونما احتجاج، وضعت سكينتي في رباط خصري، ثمّ ناديت كلبي، وعدنا معاً إلى بيت يعج بالفتيات.